الاتقاد الوجداني في الشعر ومعنى الالتزام الاشتراكي

بقلم محمد الجزائري

« ان المادة والتقنيـــة التمرسية العمليـــة تؤلف ـ بدهيا ـ جزءا من المحتوى العملـــي والاجتماعي للفن . والذي يلوح انه يزول مع زوال العهد الحرفي للفن ، انمـا هو اللاوعي السعيد في سير تطور الاشكال وابداعها بـدءا من المادة المصنوعة . فالفن اليـــوم مقدر عليـه ان يناط بالوعي وهذه سمة عصر جديد بكامله ، « فالاشكال » تولد اكثر فاكثر ولادة واعية ، ويكون هذا بدءا من المحتوى التام وليس من « المادة المأخوذة بمعزل عن سائر العناصر .. »

ان المفهوم او رؤيا الطبيعة كما يظهران فـــي الاثارة الفنية يجب ان يجدا مكانيهما فـــي المحتـــوى النشاطي العملي .. »

من هنا فان التصعيد الوجدانـــي ، هـــو حصيلة تراكمات مشاعرية عدة ، تتكون في ظروف مختلفـة وتحت تأثير محصلة قوى عديدة ، تتصاعـد وجدانـات الانسان الشاعر عبر ترسبها في الاعماق وتحركها ونموها في مخاض زمني معين حتى تبلغ درجة من النضج والتفتـح والنمـو والاتساع ، تكون به قد وصلت درجة الاتقاد المطلـوب .. اذ ذاك لا يمكن الا ان تنسكب من اعماق الشاعر ، شعـــرا يعبر عن مجمل هذه التراكمات والمؤثرات وانعكاسا عنها .. وهذا التوالد والتواجد والتصاعد ثم الاتقاد .. هـو نتاج عمليات سيكولوجية من خلال مؤثرت ماديـــة وروحيـة وفكرية تجد ثغرة الانطلاق في لحظة التفاعل التـام وفـي لحظة تحريك زمني وايحائي واثاري .. فتنسكب .. وقد تكون لحظة تذكير ، ورصد او لحظـة استعادة او منلـوج داخلي في اللاشعور ..

اذ ذاك اما ان يقتنص الشاعر هذه الارهاصات فـي لحظة الاتقاد الوجداني ، ويسجلها واما انها تنفلت منـــه فتهرب ..

ولكن هل ان هذا الاتقاد ، هو وليد حركة عفوية مـن الحياة او هو تجمع حياتي عاش تفاعلا في داخل الانسان .؟

وحمل الشاعر مادته وتقنيته مـــن خـلال تمرسه وعميلته ، ليضفي على مادة التأثر محتوى عمليا واجتماعيا يعني انه وضع مشاعره بمستوى جمالي تكنيكيا عبر مرحلة الانهمار الشعري .. فالشاعر ، هنا ، ليس حرفيا قطعا .. اما اذا تجاوز مرحلة الاتقاد ، ولم يستفد منها ، مـن ثـم جلس وراء مكتبه وراح يكتب شعرا .. حينذاك تتحـول عملية التفاعل الى تسطير لفظـــي لكلمات موزونـة ... حينذاك تتحول وظيفة مشاعره الى خلق حرفي او صياغة حرفية لكائناته (الكلمات) ...

اذ ذاك تفتقد القصيدة الى لمساتها الفنيـة الصادقة وتصبح (محض) قطعة جمالية ، شكلا .. فـــي حين ان الاشكال تولد الاشكال في الصياغات الصادقة ابان اضواء الشاعر على مادة مضامينه ، ومن ثـــم وسائله التكنيكية وملكته او ثروته اللغوية .. الخ .. الخ ..

الانسان الشاعر ، ابان مخاض اللحظات الاتقاديـة ، يعيش انفعالا خاصا عنيفا سادرا بعنفه او يسيل نعومـــة وشفافية او يغرق بالالم حتى الاعماق . او فرحا سعيـدا كطفل .. وفي كل هذه الاشكال الانفعالية ، يعلـو لحـن الاغنية بتناغم خاص صادق يكـون الشاعر فيـه الملتقط والمعطي ، عبر الموحى ، والمتفاعل .

وهنا امام هذا الحشد المشاعري المتلاطم ، لا يمكن ان يقال للشاعر : لم انجبت مشاعرك هذا اللون او هـذا المضمون ؟ . انها عملية داخلية معقدة .. تنبع من خلال تعانق وتراصف للاحظات عديدة ، وتلونها بمشاعر خالصة الاثارة ومن ثم انعكاسها من واقع شريحة اجتماعية معينة عبر عملية صلب وجداني كامل التعذيب .. والشاعـر الفنان هنا لا يمكن ان يتحكم بمشاعره ليصوغ قصيدة بل القصيدة هي ولادة طبيعية لزحمـــة مشاعر ومؤثرات عديدة ..

وحتى الشاعر والكاتـب الاشتراكي ، لا يمكن ان يتخطى حدود مشاعره الذاتية ورؤاه الخاصة للاحداث. ليكتب في لحظة شعور معين عن شعور اخر ولحظة اخرى لم يعشها بصدق او يتفاعل معها ... بدعوى ان الواجب يحتم عليه مثلا ان يكتب عن (بنزرت) ولو كانت القصيدة ـ مثلا ـ بمستوى المقالة السياسية العابرة .

يقول ارنست فيشر :

ان الفنان (او الشاعر) الاشتراكي يتبنى وجهـة النظر التاريخية للطبقات العاملة لكن ليس معنى ذلك انه ملزم بالدفاع في انتاجه عن اي عمل او قرار يتخذه اي حزب او شخصية تمثل هذه الطبقات العاملة . انه يرى في الطبقة العاملة القوة الحاسمة لكنها ليسـت القـوة الوحيدة ـ اللازمة لدحر الرأسمالية ولتطور قوى الانتاج

المادية والروحية تطوراً غير محدود من أجل تحرير شخصية الانسان .. اي بعبارة اخرى .. انه يندمج بشخصه في المجتمع الاشتراكي النامي اندماجا كاملا ..

وباعتقادي ان الشاعر في لحظة انقاده الوجداني يضع مشاعره واحاسيسه مع القضية التي آمن بها ان كان ابنا بارا لهذه القضية واعيا لمهامه فيها ودوره كانسان ذي وظيفة اجتماعية من خلال كلماته وحروفه .. وان كان متماسك الثقافة وغير مهزوز فكريا ، فهو يملك ، اذن ، سلاحه الفكري ، ويعتمد على قاعدة ثقافية واسعة ومن خلال هذا المجموع الفكري يوجهه الوجهة التي تحمل صياغاته الشعرية بها مجد الانسان ، شرف الغاية ، وعمق الاحساس ، بالضرورة ، بكل مقتضيات واجب الانسان الشاعر الاشتراكي الواعي لمهام المرحلة . اذن لا يمكن قطعا ، وليس من حق أي ناقد ان يحدد حرية الفنان الشاعر في اختيار الصيغة الانسانية لمضامينه الانسانية في ذات الوقت الذي يحدد هو طبيعة الموضوع الذي يناوله من خلال مؤثرات الحياة والطبيعة والسياسة .

ـ وهذه حتمية ـ ويضع الصيغة المناسبة له ... دون الزام جبري بأن يصوغ حروفه بالشكل التالي او بالقيمة الجمالية التالية ..

اذن .. لا يمكن من وجهة نظري طرح السؤال التالي على الشاعر : لماذا لم تنجب شكلا اخر في اللحظة الاتقادية المعنية لتعبر عن المضمون المعين ؟ . اقول ان الشاعر ليس وليد تلك اللحظة الاتقادية ، زمنيا .. بل هو وليد تراكمات حضارية وفكرية واجتماعية وسياسية معقدة . انه وليد قطاع زمني كامل بكل ما فيه من تراث موروث وحاضر معاش ، ومستقبل متمنى .. لكنه يتفجر في تلكم اللحظة الاتقادية .

وان سيكولوجية الشاعر كانسان ، لتعيش عملية مد وجزر حضاريا ، وان بوصلته تظل تتحرك قلقة ما دام ثمة ألم يكمن في صلب وجدان العالم . ما دامت ثمة مجازر في الفيتنام مثلا يدبرها بتخطيط رهيب قادة البنتاغون .. وما دام ثمة (نغل) مزروع في قلب الشرق العربي اسمه اسرائيل .. وما دام ثمة اقزام متهرئة لتيجان لما تزل تجلس على بركان احداث وتناقضات .. وما دام ثمة حكومات تسيطر بعقلية القرون الوسطى ... وما دام ثمة خطايا ترتكب تجاه الجنس البشري في كل مكان . ان مجمل هذه الظواهر المعقدة تجعل الشاعر الانسان يواجه اكثر من عدو ... ويقف على ارض المعركة ليناضل باكثر من جبهة .. ومن هنا فهو باعتقادي انسان مجاهد بحرفه وبكلماته .. ولا بد ان يعي هذه المسؤولية وبحكم ذلك يكون الشاعر حتى في حالات الاتقاد الوجداني غير بعيد عن مشاعر شعبه ووطنه وامته والانسانية .

ولكن هناك وجها اخر للقضية . فقد تنتاب الشاعر في خندق المعركة احاسيس نقية عن لوحة غزلية عاش خطوطها والوانها في الماضي فترسبت في اعماقه وتراكمت عليها الوان شتى من الحاضر وامال المستقبل .. فاغنتها واغتنت بالحياة وبالعديد من الزخوم ، وتحت تأثير عنف المعركة يحن الانسان احيانا لماضيه ، فليس اصعب واعنف على الجندي والمناضل من ضغوط الماضي ، ولوعة البعاد والفراق والمنفى ولا غرابة ان نجد العديد من المغتربين يجسدون كثافة الحزن الاغترابي حتى في صيحات الالم والرفض والاحتجاج التي يطلقونها بين حين واخر . وانا لا اقول ان ذلك نقطة ضعف في الانسان بل صفة عميقة وسمة من سمات انسانيته .

ففي لحظة تداعي الشعور قد يصب الشاعر هذه الصور والذكريات الماضية مزيجة بتطلعاته ورؤاه فتنثال بذبذبات موسيقية متناغمة فتشكل تأججا عاطفيا قويا يتجسد في قصيدة حب الى وطنه او مدينته او زوجته او حبيبته او طفله .. او ربما الى نخلة جرداء في صحراء حياته الماضية .. انه يشتاق حتى الى وحل مدينته .. اشتياق العاشق المتيم .. فهنا يخضع الشاعر للحظة انفجار هذه المشاعر ووصولها درجة الاتقاد الوجداني ، اذ ذاك لا يمكن ان يوقفه شعار او قرار بالتزام الكتابة عن موضوع لا يرتبط بمشاعره ارتباطا وثيقا وصادقا ..

لقد وقعت بيدي مرة ثلاث قصائد لثلاثة شعراء عراقيين مغتربين : **السياب** : في قصيدة (في انتظار رسالة) .. التي بعثها الى زوجته وهو في مستشفيات لندن وقد نشرت في (شناشيل ابنة الجلبي) . و **بلند الحيدري** : في قصيدة (خطوات في الغربة) .. وهي موجهة من بعيد لزوجته ووطنه ايضا . و **البياتي** : في قصيدته (الموت في المنفى) .. المنشورة في مجلة (الهلال) المصرية .

وهي ثلاث قصائد ، كتبها الشعراء الثلاثة وهم خارج وطنهم (العراق) وثلاثتهم كانوا قد مروا بموقف معين ، احسوا تجاهه بشيء من الندم بشكل او باخر .. ومع ان جذورهم الفكرية واحدة ، وتطلعاتهم كانت واحدة ، ولوعة الفراق والمنفى فرقتهم ، مع تفاوت درجات الالم والمعايشة بين المرض الذي حول السياب الى كسيح .. والموت الوجداني الذي اطبق على البياتي ، حينذاك ، ومحاولة بلند لحيدري ، استعادة موقعه في ارضه ، وفي بيته ، اذ كان له في العراق ، حب وبيت .. ولكن الشعراء الثلاثة ، اعتصرتهم تجربة البعاد عن وطنهم ، وعبروا عنها كل حسب صياغته الخاصة .. حين داهمتهم مشاعر الغربة ووصلت حدا من الاتقاد لا يمكن بعده الا التعبير .. وهم باعتقادي ، لم يكتبوا ، او يسكبوا مشاعرهم ، باتفاق مسبق فيما بينهم ، او بتوجيه احد .. ولكن العامل الحاسم كان ضغط الظروف .. فهل يمكن لاحد ان يقول لهم كشعراء : لماذا كتبتم بهذا التوقيت ، وعن هذه المسألة بالذات ، في هذا الظرف المعين .. ؟

اعتقد انه من الجناية ان نحاسبهم ، عن التوقيت ، وطبيعة التناول .. ولكن ان نحاسبهم فبشيء واحد فقط

.. هو مدى خدمتهم لقضية الانسان المعذب في وطنهم ، ومن خلال تجربتهم التي رسموها في قصائدهم الثلاث.. لكونهم عاصروا انساننا وعاشوا معاناته ، واستوعبوها جيدا ، بدرجات متفاوتة ، فقط ، لا بمنشأ القضية ، بل بتفاصيلها الجانبية .

اذن .. الصوت العالي ، هذا ، ارتفع عدة مرات في مراحل النضال السياسي والاجتماعي والثقافي مخاطبا جملة الشعراء : لماذا لم تعبروا عن القضية في المرحلة الثورية المعينة ؟ .. ويطرح سؤال اخر : هل عبر الادب عن الثورة .. ؟

هذه الاصوات ترتفع احيانا ومن النقاد بشكل خاص ، ولكن دون استيعاب كامل لجذور هذه القضايا ، ودون طرح معالجات واعية وحقيقية ، ومغيرة ، واحكام موضوعية ، للحياة .. وانا اقف ضد هذه الاصوات في علوها ، وغلوها في المحاسبة ، فاقول : ان الشاعر الانسان، عصب ودم ومشاعر ، فهو يعيش ويتفاعل ، وقد لا تتكون لديه ملامح الصورة الكاملة ، في لحظتها ، بل تستقر في اعماقه وتحدث جرحا عميقا او اثرا معينا ، في حينه . وقد تثير صورة سريعة في المعركة ذكريات الماضي فتصل درجة لا يمكن لبركان مشاعر الانسان الشاعر الا ان يتفجر في تلكم اللحظة .. فهل يعني ان هذا الشاعر (مع انه يحمل البندقية في كف ، وكلماته في كف اخر) اقول هل بالامكان اتهامه بالتخلف عن الثورة ، في التعبير .. والصياغة ، شكلا ومضمونا ؟ باعتقادي : كلا .

السياب في ملحمته (**المومس العمياء**) اثار ضجة معينة ، في مرحلة ثورية ملحة جدا ، و (المومس العمياء) كانت واحدة من اسباب خلافه مع الحزب الذي كان منتسبا له .. بسبب النقد الذي وجه له حينذاك ولكن **الفن يختلف عن المعرفة . وهو من اختصاص نشاطية اخرى ، ان يبدع الفنان ، او ان يحس (جماليا) لا يعني التفكير واعمال الذهن ، رغم ان افكارا وعمليات ذهنية بوسعها ان تتدخل .. ومن هذه الناحية يستغني الفن والفنان عن المدركات او يجتازانها دون التوقف عندها . (فالاثر الفني)** كما يقول هنري لوفافر **(يضع نفسه امام المعرفة بوصفه حدثا واقعيا ينبغي معرفته ، فالفكر يجهد لالتقاط هذا الحدث الواقعي ، لفهمه ، لتفسيره ، هذا الحدث الصوري ، الموسيقي ، الادبي .. الخ.) . انه يواجه (منتوجا) غنيا بالنشاطية الانسانية غنى خاصا ، تتحد فيه قطعة من الطبيعة المحسوسة ، ونتيجة من نتائج العمل الانساني . ويطرح الاثر الفني على المعرفة سلسلة من المسائل والقضايا شأنه في ذلك شأن كل حقيقة واقعية ، وتحليل محتواه انما هو غير محدود ، اما فيما يختص بتفسيره ، يعني معرفته المكتملة التامة الكاملة ، لكل شيء واقعي ، والمعرفة التامة الكاملة ، من شأنها ان تستنفد هذا الشيء الذي هو ـ في آن واحد ـ طبيعي وبشري ، فالمعرفة لا تستطيع اذن أن تتوافق (الا الى حد يستحيل بلوغه) مع نشاطيه الفن الخلاقة ، ومع الشيء الفني ، وذلك لان هذه النشاطية تؤلف جزءا مكملا من الكائن (الطبيعي والبشري) ومع اختلافهما ، لا تنفصلان، وهذا يعني ان الاثر الفني يخاطب مباشرة ، وظيفة متميزة عن الذكاء والعقل ، وهذه الوظيفة هي (الحساسية) .**

اذن فمسألة التعبير عن المرحلة ، تحتاج الى تنضيج في المشاعر ، واستيعاب معين لتفاصيل الحياة .. والتعبير عنها ، لا يعني التعبير بوسائل خالصة الوضوح والمباشرة والسطحية .. لكي لا يتهم الشاعر ، بانه متخلف عن المرحلة .. من هنا يكون للشعر وظيفة اجتماعية ، ولا يصبح مجرد متعة ذهنية .. او مجرد واجهة لفظية لارضاء هذه المشاعر السياسية او تلك . فالشعر ، باعتقادي ، ليس بضاعة كمالية نزوق بها عالمنا .. صحيح ان الشعر يلون عالمنا بكل ما هو جميل ومرهف وانساني وينفتح على افق أخضر .. ويصوغ لنا اغاني الحب والانسان والحياة .. لكنه في ذات الوقت ، يجاهد في معركة الانسان والحياة وحب البشر .. وبذلك تكمن فيه وظيفة اجتماعية حتى لو كان غزلا في معركة حامية الوطيس .. لان الشعر هو سلاح اخر في معركة الوجود .. والقيم .. فاما ان يكون الشاعر مغني قضية ما ، من خلال حس ما ، وعبر تكامل رؤية معينة ، ولخدمة هدفية انسانية ، غاية في النبل .. حتى من خلال غزله الخالص .. والا فان وقف في صف معاد للانسانية ، فهو يموت كانسان .. ويموت كشاعر ..

شعر المعركة هو شعر اتقاد وجداني ، اتقاد وجدانات لا يجب ان تكون مرتجلة ، سطحية ، عادية في الرؤية ، والالهام .. بل قوية ، تصفع كل الذين يركنون الى الصمت والانزواء ، ويظهرون ، اوقات الرفاه ، كابطال تصفق لهم الجماهير . والا فكيف يمكن للشاعر ان يكون انسانا ذا رسالة ؟ .

انا اعتقد ، ان ليس ثمة غزل (محض) او سياسة (محضة) .. فلا وجود لاي شيء (محض) خالص ، في الحياة .. لذا فحتى اغاني الغزل الانسانية الطابع ، هي اغاني معبرة بدرجة او اخرى عن شريحة اجتماعية ، او ظاهرة مجتمعية ، او حياتية ، معينة .. وهذه وتلك ، ترتبط وتتأثر بالسياسة ، حتما .. ولكن لا يعني هذا انها تخضع تماما لقرارات سياسية فقط .. اما ان يكتب الشاعر ، حماسا مفتعلا غير صادق ، ولم ينبع من مشاعر حقيقية ، فهذا موقف خداعي ، يجب ان يرفضه كل انسان .. فالشعر ليس مقالة سياسية ، بل انه اجمل ما يقال ، وليس كل ما يجب ان يقال .. وطبيعي ان الشاعر كانسان، وكفرد في المجتمع يرتبط بالظروف المجتمعية ارتباطا وثيقا ويعبر عنها ..

ـ فالشعر يجب أن يحتوي على نشاطية جمالية تميز الخصائص الاصيله للشاعر ، وللاثر الفني ، لان كل اثر فني لا يخلو من شيء من المعرفة ، لتمد النشاطيــه الجماليه والمعرفه جذورها في القوى المنتجه وفي التمرس العملي (الاجتماعي) ، وفي الحياه نفسها ، فــي لحظه معينــه ..

ففي العراق يقف شاعران وطنيان كبيران في مقدمة شعراء المعركة .. احدهما يصوغ قصائده بجزالة وغنى شكلا ومضمونا ، لذا يتسم شعره بالقوة والتكنيك والثورية المبدعة .. ومع انه كلاسيكي في الصياغات الشكلية ، وفي البناء التركيبي للقصيدة ، لكنــه حديث ، وعصري فــي تناوله وتأمله وتعبيره ..

اما الاخر : فهو معاصر ، وكلاسيكي ، وثوري ايضا .. ولكن مضامين قصائده تأخذ شكلا يفتقد الى التكنيك الفني .. والقوة والجزالة اللفظية ، في البناء .. لذا فهي تبدو اقرب الى المقالات السياسية ، ولكن صيغت وفــق بحور الخليل .. صحيح ان قصائده اكثر بساطة ، واقرب للفهم ، لكنها في ذات الوقت بعيدة عن قوة وجزالة الشاعر الاول مع ان الاثنين ينهلان من منبع واحــد ــ تقريبا ، ويعبران عن قضية واحــدة (من حيث الاطار العــام) . والسبب باعتقادي ليس ثقافة الشاعر وحدها ، وطريقــة تفكيره ، وصياغاته ، بل ان الاول يعتمد تأملا اعمــق ، ورؤية اجزل ، وامتدادا في التاريخ ، ابعد .. ويعتمــد اسلوب التزاحم الوجداني لمشاعره ، حتى الاتقاد ، فــي حين يصوغ لاخر قصيدته بسرعة الحدث دون ان تمــر عبر مخاض حقيقي ، ومرحلة تعمق مشاعري غزيــر .. لتأخذ ابعادها الناضجة نفسيا .

ان الكلمات الطيبة في هدفيتها ومضمونها لا تكفي لان تكون شعرا .. كذلك الانسان الطيب لا يكفي ان يكون مجاهدا ..

وان التكثيف الفني لصياغة الكلمات مــــن خلال الانهمار المشاعري ، في درجة من الفهم المعقول لا الغموض المبهم .. هو محور البناء التكنيكي للقصيدة المغناة ... ومع اني أؤكد بأن النشاطية الجمالية هي وليدة الشاعر نفسه .. في حالة الاتقاد ، وفي اللحظة الزمنية الشاعرية مع ان الشعر المرتجل ليس شعرا طويل العمر ، لانــه لا يحمل مؤهلات العيش طويلا ولا التأثير بعيدا في النفس البشرية .. ولكن النشاطية الجمالية هي في ذات الوقت اكتساب مراسي من العمل المثابر لذا فالاتهامات الموجهة للشاعر الهادف يجب ان لا تنصب في : لماذا لا تكتب شعرا ثوريا ــ دائما ــ معبرا عن اللحظة الزمنية الآنية في الحال؟ بل : لماذا لا تكتب شعرا انسانيا يخدم قضية الحرف المقدس والانسان والحياة .. حتى في لحظـــة الاتقــاد الوجداني ؟ .

بغداد **محمد الجزائري**

الحزن الذي لم يمت

أغرقنا الصمت هنا وأغرق البيوت ،
وكل شيء حولنا يموت ،
الثمر الرطب وفئران الحديقة الجياع ،
ماتت . ومات الامل الخداع ،
نحن نسير في خضم الحزن كالرياح
وكلنا نلهج ربنا ضاعف لنا الجراح
بارك لنا الحزن الذي وهبته لنا
يــا سعدنا .
لــو زدتنا .
لو جدت بالمطر ،
لو امطرت سماك ،
فشجر الصبور والاراك ،
تساقطت اوراقها . وجفت الزيوت ،
ومات الف طائر . والف عنكبوت
ما ذنبها تموت ،
تصمت في انكسار ،
في زحمة الفصول . والنهار
يظل جاهما بلا ضياء . والنجوم
اعمى بلا دليل ،
في كف عفريت تعوم ،
وهذه الوديان والتخوم ،
وشاحب الشجر .. .
أغرقها الصمت الطويل ،
وحزننا الثقيل ،
ينتظر الموت . وليته يموت ،

احمد المأخذي
المفوضية اليمنية باديس أبابا